الفصل السابع عشر

القضاء على سلطان الأكاسرة

تقع نهاوند وهَمَذان فى صميم العراق العجمى ، وهما لذلك من صلب المملكة الفارسية ؛ فأهلهما من الفرس جنساً ولغة وديناً ، لا يمتُّون إلى العراق العربى وأهله بنسب ، ولا يعرفون من لغة العرب كلمة . لذلك كانت نكبة الفرس فى نهاوند نكبة فى صميم ملك كسرى ، فلم يكن له ولا لبنى وطنه بعدها إلا الإذعان والنزول على حكم المسلمين ، أو الحرب الضروس تنتهى بهم إما إلى نصر يُخرج العرب من بلادهم ، أو هزيمة تزيل الأكاسرة عن عرشهم ، وتقضى القضاء الأخير على دولتهم وسلطانهم !

وكان الأمر كذلك بخاصة لأن العراق العجمى يتوسط ولايات المملكة كلها : تقع إلى شماله أذْرَبِيجان وطَبَرِسْتَان وجيلان ، وإلى شرْقِه سمان وصحراء إيران ، وإلى جنوبه فارس وكَرْمان ، وإلى غربه وجنوبه الغربى يقع العراق العربى وتقع خوزستان . وبالعراق العجمى مدنٌ كبيرة تعدّ فى حكم العواصم ؛ منها أصفهان وهَمَذان والرىّ . فإذا توغل المسلمون فيه واستولوا على هذه المدن فتح ذلك أمامهم أبواب إيران كلها فانساحوا فيها ، وهيهات لقوة بعد ذلك أن تقف فى طريقهم !

ولكن ! كيف ليزدجرد أن يقف تيار الغزاة الجارف ؟ لقد رآهم منذ نصرهم بالقادسية يندفعون خلالَ العراق العربى إلى المدائن وجلولاء ، ويُقيمون البَصْرة والكوفة ، ويحطمون مقاومة الهرمزان فى خوزستان ، ويواجهون قوات فارس مجتمعة بنهاوند فيقضون عليها أيما قضاء . ألا يدلّ ذلك على أن الأقدار حالفتهم ووقفت فى صفهم فلن يستطيع أحد صدَّهم ! ومحالفة الأقدار هى التى طوَّعت لهم غزو هِرقْل بالشام وطرده إلى بُزَنطية والاستيلاء على بيت المقدس مهد النصرانية ومستقر هيكل سليمان . أليس خيراً ليزدجرد أن يصالح غزاةً ذلك شأنهم ، فيدع لهم ما فتحوا ويكتفى بما بقى له من ملك أجداده ؟ ! ولعل القدر الذى تجهَّم له اليوم يكون أبرَّ به غداً ! أم ترى تصده كبرياء الملك الذى تأثَّل فى فارس عشرات الأجيال والقرون عنَ أن يطلب الصلح مقهوراً ، وتدفعه حماسة الشباب إلى مغامرة جديدة ؟ ! الحق أنه اضطرب بين الأمرين أشد الاضطراب . فمن ذا يكفل له إذا طلب الصلح ألا

يرفض خليفة المسلمين مطلبه ، فيكون الرفض مذلة له شر مذلة ؟ ! ومن ذا يكفل له إذا دعا قومه إلى مغامرة جديدة أن يجيب مَرَازبة فارس وأمراؤها نداءه ، فإذا لم يجيبوه أقام فى ملكه كأنه مخلوع عن عرشه ، لا يسمع له أمر ، ولا ينضوى أحد إلى لوائه ؟ ! لذا ترك الأمر للقدر يجرى به كما يشاء ، من غير أن يكون له فى رحمة القدر كبير رجاء .

وأضعف رجاءه انصراف الأمراء والمرازبة كلٌّ إلى شأنه . لقد تعاهدوا على نصرته يوم تولى العرش وجلس بالمدائن فى إيوان كسرى لأن المملكة كان لها يومئذ جيش تعتز به ، ويحمل الناس على طاعته . وقد انضووا إلى لوائه وبعثوا بالجيوش إلى نَهاوَند لمقاتلة عدوه يوم كان الرجاء فى صد الغزاة لا يزال قويًّا فى نفوسهم . أمّا وقد تضعضع جيش الدولة ، وضعف الرجاء فى جلاء الغُـزاة ، فقد اضطربوا وانصرف أكثرهم يفكر كل أمير فى إمارته وفى مصير ولايته : أيدافع المسلمين عنها ، أم يصالحهم على أن يظل والياً باسمهم عليها . لم تبق صلة هؤلاء الأمراء بيزدجرد صلة ولاء ونظام ، بل صلة مجاملة لمليك أوهن القَدر سلطانه ، فجعل يتنقَّل تنقل الشريد بين بلاد مملكته . فإن يكن القدر قد كتب فى لوحه قرب خاتمته فلهم العذر أمام أنفسهم عما صنعوا ، وإن تكن الأخرى فلهم إلى يزدجرد عودة ، وهو لا ريب يقدِّر يومئذ حكم الضرورة عليهم .

أنت فى حِلٍّ من التثريب على هؤلاء الأمراء لهذا التفكير ؛ فالدول لا تقوم ولا يرتفع شأنها بمثله . لكن هذا التفكير كان طبيعيًّا بحكم الأحداث التى أصابت فارس فى العهد الأخير ، وكان طبيعيًّا لأنه كان وليد التاريخ الفارسى منذ أقدم الحِقَب . فقد استقرَّ الفُرْس فى الأرض التى أطلق عليها اسمهم قبل ميلاد المسيح بعدة قرون . وكانوا يوم استقروا بها شعباً شديد الحرص على بساطة العيش ، صعب المراس ، صلب القناة فى الحرب ، شديد الطموح إلى التوسع والفتح . وقد التقوا هم والميديّون فى العراق العجمى ، ودارت بين الفريقين حرب طاحنة انتهت إلى صلح أذعن به أهل مِيـــدِيا لسلطان الفُـرس وانخرطوا فى سلكهم ، واندفعوا وإيّاهم يقاتلون عدوَّهم . وتخطّى الفرس بلاد إيران إلى ما بين النهرين ، وساروا منها إلى مصر وإلى بلاد الإغريق ، فكانت بينهم وبين مدن اليونان وقائع ردَّهم بها الإغريق عن أوربا . وكانت فارس يومئذ ولايات استقرّ فى كل ولاية منها أمير من أمرائها المحاربين ، فنصب نفسه ملكاً عليها ، واستقل بإدارة شئونها . ثم اجتمعت هذه الولايات فى اتحاد قام كسرى على رأسه ، وتولى توجيه شئونه العامة ، واتخذ « الملك الأعظم » لقباً له . وقاتل الفرسُ الدول المجاورة لهم فى الشرق والغرب فانفسح سلطانهم ، حتى دهمهم

الإسكندر المقدونيّ ، فغلبهم على أمرهم ومدَ سلطانه فى أرجاء بلادهم . وكانت سياسة الإسكندر تدع شئون الحكم الداخلى لأهل البلاد . لذا بقى أمراء فارس ولهم ما كان لهم من سلطان مطلق فى الولايات التى أقاموا أنفسهم ملوكاً عليها ، فزاد ذلك فى استمساكهم بهذا الملك وحرصهم عليه . واستردّت فارس استقلالها بعد الإسكندر ، وقام بنوساسان بأمرها فكانوا أكاسرَتها ، وكانت المدائن عاصمتها ، وإن احتفظ أمراؤها ومرازبتها بسلطانهم فى مختلفِ ولاياتها . وعاد بنوساسان بفارس سيرتها الأولى تقاتل وتَمُدّ سلطانها . وتدفقت إليها الأموال من مختلف الأرجاء فى البلاد المفتوحة تدفقاً نزع بأهلها إلى الترف ، فأخذوا من أسبابه بأعظم حظ وأوفر نصيب . واطمأنّ الفرس إلى هذا الترف عهوداً طوالاً تفنّنوا فى أثنائها فى أسبابه ، فتحدَّر بهم شيئاً فشيئاً إلى الشهوات الدنيا ، فأورثهم رخاوة أضعفت فيهم صفات البطولة والإقدام التى كانت لآبائهم وأجدادهم ، ثم لم يستعيضوا عن هذه الصفات صدق العزم وقوة الجَلَد مما تبعثه الحضارة السليمة إلى نفوس الآخذين بها ، فانكمش بذلك سلطانهم شيئاً فشيئاً . وقد حاولوا استعادة هذا السلطان فى أوائل القرن السابع المسيحى ، فحاربوا الروم وظفروا بهم واستولوا على بيت المقدس وعلى مصر . وانهزم الروم أمامهم بسبب ما فشا فيهم من سوء الحكم وفساد النظام . فلما تولى هِرَقْل أمر الروم ردّ الفرس على أعقابهم ، واسترد الصليب الأعظم منهم . ولم يقف أثر الهزيمة بالفرس عند ارتدادهم إلى تخومهم ، بل ضعفت نفوسهم ، وفشت الفوضى فى بلاطهم ، وتزعزعت ثقتهم بأنفسهم . فلما فاجأهم العرب زادتهم هذه العوامل رخاوة ، فلم يستطيعوا الثبات فى وجه غُزاتهم ، فجعل كل منهم يتلمس النجاة لنفسه ، وجعل أمراؤهم يلتمسون السلطان الزائف فى كنف الفاتح يستمتعون به ولو إلى حين ، تاركين كِسْرى رمز وحدتهم وعزتهم تجرى الأقدار فى أمره بما تشاء .

كان ذلك شأن عاهل الفرس وشأن كثيرين من المرازبة والأمراء فى دولته . أما عمر فلم يلبث حين اطمأن إلى انتصار جنده بنَهاوَنْد ومصالحتهم أهل هَمذان أن ذكر قول الأحنف بن قيس : إن الفرس لن يزالوا يقاومون المسلمين ما دام يزدجرد بين أظهرهم ، فلم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يُخرج أحدهما صاحبه . لا مفرَّ إذاً من تعقُّب الفرس فى أرجاء ملكهم حتى يجلو عنه كسرى فيصير خالصاً للمسلمين ، فأى الخُطَط أنجع لبلوغ هذه الغاية ؟

لم يكن لعمر أن يُسيِّر الألوية التى عقدها لتنساح فى أرض فارس قبل أن يفتح العراق العجمى كله ، فيحمى بذلك ظهره ، ويأمن خط رجعته ، ويسيطر على الطرق التى

تسير خلالها الأمداد من العراق العربي ومن شبه الجزيرة لتعزيز جنده . ولكن ! هل تسير القوات فى هذا العراق العجمى من همذان إلى الرِّى تفتحها ، أم تنحدر من نهاوند إلى أصبهان لتُخْضِع من هذه الولاية المترامية الأطراف أفسح أرضها رقعةً ، وأكثرها بخوزستان وبالعراق العربي اتصالا ؟

فقد كان يزدجرد مقيماً بالرى حين دخل العرب نهاوند وهمذان . فلما رآهم اقتربوا من مقرِّه خف إلى أصبهان يحرِّض أهلَها على المقاومة . وبلغ ذلك عمر فأمر بالسير إلى أصبهان وكان رجاؤه أن يتولى يزدجرد الدفاع عنها فيقع أسيراً ، فتتحطم بأسره مقاومة الفرس كلها . لذلك أمر عبد الله بن عبد الله بن عِتْبان فسار إليها فيمن كان معه من جند الكوفة ومن تبعه من جند النعمان بن مقرِّن بنهاوند .

وفى رواية أن عمر بن الخطاب شاور الهُرْمزان فقال له : ما ترى ؟ أبدأ بفارس أم بأذربيجان أم بأصبهان ؟ وأجابه الهرمزان : إن فارس وأذربيجان الجناحان وأصبهان الرأس ، فإن قطعت أحد الجناحين قام الجناح الآخر ، فإن قطعت الرأس وقع الجناحان ، فابدأ بالرأس . واطمأن عمر إلى هذا الرأى فأمر بالسير لفتح أصبهان .

وأصبهان ، أو أصفهان ، مدينة عظيمة كانت عاصمة إقليم من أقاليم العراق العجمى يُطْلَق عليه اسمها ، وكانت تتألف من مدينتين متجاورتين : جَىّ واليهودية . وهذه الأخيرة كانت مستعمرة يهودية الأصل ، أنشأها يزدجرد الأول إجابة لرغبة زوجه اليهودية شوشن دخت . أما جىّ فهى القصبة ، وهى من أصح المواضع تربة وأطيبها هواء وأعذبها ماء ، ولذلك اختارها الملوك مسكناً لهم . وتقع أصبهان فى نهاية المنطقة الجبلية من جهة الجنوب ، وهى خِصْبة الأرض واسعة الرقعة ، تصل الطرق المعبَّدة بينها وبين شتى أرجاء المملكة ، فالطريق منها إلى الرّى يمر بقاشان ثم بقُمّ .

سار ابن عِتْبان فى جنده ، فلقيه جيش عظيم من الفرس بظاهر أصبهان ، ولم يُمهله أمير[1] هذا الجيش أن أنشب القتال معه ، واشتد القتال وحمى وطيسه وكان على مقدِّمة الفرس شيخ كبير هو شَهْرِيار بن جَاذَوَيْهِ[2] ، وكان من أبطال الفرس المعدودين ومن المبارزين الذين لا يثبت لهم فى الميدان خَصْم . وقد رأى المعركة تترجَّح ورأى القتلى من الفرس يكثرون كثرةً خشى أن تَدخل الضعف إلى نفوس سائرهم ، فبرز إلى الصف الأول ودعا

---

(١) الاستندار هو اسم الأمير على هذه القوات .

(٢) ويذكر هذا الاسم على أنه شهر براز جاذويه .

من جنود المسلمين من ينازله . وبرز له عبد الله بن وَرقاء الرِّياحىّ فصاوله فقتله .

ورأى الفرس فارسهم المَعْلَم صريعاً فاضطربوا ، ثم جلوا عن هذا الرستاق فنزله المسلمون وسمَّوه لذلك رُسْتاق الشيخ . وتراجع الفرس إلى جَىّ ، يحتمون بأسوار أصبهان ، على حين أقام المسلمون فى خطوطهم الجديدة ينظِّمون خُطَّتهم لمهاجمة المدينة العظيمة الحصينة .

عرف يزدجرد ما أصاب الفرس برستاق الشيخ ، ففر من أصبهان ناجياً إلى كرمان . وتَقدَّم عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى جىّ فحاصر أصبهان فتحصّن جندها بقلاعها وجعلوا يزاحفـــون المسلمين ويقاتلونهم ثم يعودون إلى حصونهم . فلما طال ذلك بهم وضاقوا به خرجوا يريدونها موقعةً حاسمة ، واصطف الجيشان للقتال وكان موشكاً أن يبدأ غير أن الفاذوستان [1] أمير أصبهان بعث إلى عبد الله بن عتبان يقول له : لا تقتل أصحابى ولا أقتل أصحابك ، ولكن ابرز لى ، فإن قتلتك رجع أصحابك ، وإن قتلتنى سالمك أصحابى ، وإن كان أصحابى لا تقع لهم نُشَابة . وتصاول الرجلان زمناً ، ثم قال الفاذوستان لعبد الله : « ما أحب أن أقاتلك فإنى قد رأيتك رجلا كاملا ، ولكن أرجع معك إلى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله ، وعلى أن تجرى من أخذتم أرضه عنوةً مجراهم ويرجعون ، ومن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه » ، وأقرّ عبد الله هذا الصلح ، ودخل أهل أصبهان فى الذمة إلا ثلاثين رجلا خالفوا قومهم ولحقوا بكرمان فى حاشيتهم .

بينا يقاتل المسلمون ليفتحوا أصبهان كانت بلاد الشمال الواقعة جنوب بحر قزوين تجتمع إلى إسفنديار الرازىّ أخى رستم الذى هُزِم وقُتل بالقادسيّة ، تُعِدُّ العُدَّة معه لدفع المسلمين عن الرىّ . وعرف أهل هَمَذان اجتماعهم فتشجَّعوا ونقضوا الصلح الذى عقدوه مع المسلمين بعد نهاوند . وبلغت عمر أنباء الانتقاض فى همذان ، فأمر نُعَيْم بن مقرِّن أن يطير إليها وأن يدخلها عنوةً عقاباً لأهلها حتى لا يعودوا لمثل فعلتهم ، ولكى يعتبر غيرهم بهم فلا يجرؤ قوم من بعدها على نقض عهدهم مع المسلمين . وسمع أهل همذان اسم نُعَيْم وعرفوا سيره إليهم ، فذكروا نهاوند وذكروا الفيرزان ومصيره بثُنيَّة العسل فسُقِط فى أيديهم وتولاهم الرعب ، وأيقنوا أنهم محصورون مقهورون لا محالة . وزاد بهم الجزع

---

(١) ذكر اسمه فى كتب مؤرخى العرب. وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية ما نصه: «سار عبدالله بن عتبان بأمر الخليفة عمر إلى جى، وكان عليها واحد من الفاذوستان الأربعة وهم حكام الدولة الفارسية».

حين ترامى إليهم استيلاء نُعَيم على ما حول همذان من البلاد ، ولم يبق لديهم ريب فيما قدِّر لهم من سوء المصير . فلما انتهى نعيم إليهم وحاصر مدينتهم بعثوا إليه يطلبون الصلح وهم فى ريب من قبوله ما طلبوا . وكيف يطمئن إليهم وقد نكثوا من قبل عهدهم ؟ وما كان أشد اغتباطهم حين رأوه يقبل منهم الجزية على أن تقيم بهمذان قوة من المسلمين يذكِّر وجودها أهل المدينة بالعهد ويقبض أميرها منهم الجزية . ترى أقَبِل نعيم منهم ولم يفتض مدينتهم ضنًّا بأرواح رجاله أن يصاب منهم أحد ؟ أم ترامت إليه أنباء إسفنديار والذين اجتمعوا إليه فآثر أن يحتفظ بقوته كاملة يواجه بها هذه الجموع المتزايدة تريد مهاجمته طمعاً فى أن تدفعه عن الرىّ ، وأن تُجليه عن همَذان ، وأن تسترد ما كسبه هو وما كسبه أخوه النعمان من قبل ؟

أيًّا كان السبب الذى أدّى بنعيم إلى مصالحة أهل همذان فإن الجموع التى انضمّت إلى إسفنديار كانت تزداد على الأيام عدداً وقوة . وبلغ نعيما ، وهو على رأس اثنى عشر ألفاً من المسلمين بهمذان ، أن هذه الجموع تتحرك نحوه من جهات مختلفة : تحرك الديلم وعلى رأسهم أميرهم موتا ، وتحرك أهل الرى وعليهم الزينبى [1] أبو الفَرُّخان ، وتحرَّك أهل أذربيجان بإمرة إسفنديار ، وجعلوا واج رُوذَ وجهتهم وملتقاهم . وكانت دَسْتَى أقرب محلة من واج روذ . لذلك جعل نعيم عيونه بها يتنطّسون الأخبار ويبعثونها إليه . وسبقت الديلم إلى الملتقى ، فبعث العيون بأنبائهم إلى همذان ، فخرج نعيم منها واستخلف يزيد بن قيس عليها ، وسار فى جنده حتى نزل قُبالة القوات المتحالفة التى اجتمعت لقتاله . وكانت هذه القوات قد كمل عددها ، فلم تُمْهِل المسلمين أول ما نزلوا الميدان أن شدَّت عليهم ، وفى ظنها القدرة على الظفر بهم ، بل على استئصالهم . واشتد القتال بين الفريقين شدة ذكر بها الناس يوم نهاوند . وكان المسلمون قد ألِفُوا النصر فلم يكن التغلب عليهم يسيراً . أما هذه القوات من الديلم والفرس فلم تعرف لواء يجمعها فهى تدافع عنه وتموت دونه ، لذلك انكشفت منهزمة حين أقبل المساء بعد أن قتل المسلمون منهم عدداً غفيرًا .

كان نُعَيم قد بعث إلى عمر بإخضاع همذان ومصالحته أهلها ، وذكر له ما ترامى إليه من اجتماع الديلم وأهل الرى وأذربيجان لقتاله . وفزع عمر لهذا النبأ وجعل يدعو الله أن يؤازر جنده وأن يؤيدهم بنصره ، وأقام بالمدينة ينتظر أنباء هذا الجند وهو أشد ما يكون إشفاقاً عليهم . وإنه لكذلك إذ قدِم عليه عُرْوة بن زيد الخيل ، وكان قدم عليه من قبلُ

(١) الاسم الفارسى الزنبدى . أو الزبندى . ومؤرخو العرب يطلقون عليه اسم الزينبى .

بنبأ غزوة الجسر حيث قتل أبو عبيد الثقفى وانهزم المسلمون . فلما رآه عمر قال : بشير ! وأجاب الرجل : بل عروة . فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ! عند ذلك فطن عروة فقال : بل أحمد الله فقد نَصَرَنَا وأظهرنَا ، وحدّثه بما كان . فلما أتمَّ حديثه قال عمر : هلا أقمت وأرسلت ؟ وأجاب عروة : قد استخلف أخى وأحببت أن آتيك بنفسى ، ومن يومئذ سمَّاه عمر البشير . وأمر عمر فقُرئ الكتاب الذى حمله عروة من نعيم بالفتح والنصر ، فحمد الناس الله وصلّوا شكراً لأنعمه .

وعاد عروة إلى همذان يحمل من عمر إلى نعيم كتاباً فيه : « أما بعد فاستَخْلِف على همذان وسِرْ حتى تقدم للريّ وتلقى جمعهم ، ثم أقِم بها فإنها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد » . ولم يلبث نعيم حين قرأ هذا الكتاب أن أقرَّ يزيد بن قيس على همذان وسار بالناس إلى الرى وهو لا يشك فى أن الله سيفتحها عليه . وكيف يخامره فى ذلك شك أو تخالط نفسه فيه ريبة ، وقد لقى جموع الرى مع الديلم وأهل أذربيجان ، فهزمت وقتل منهم مُوتا ملك الديلم ! ولعله أفرط فى تفاؤله ؛ فقد كان الملك بالرى يومئذ سِياوَخش بن مهران بن بهرام جوبين ، وكان قد أيقن بعد واج رُوذَ أن المسلمين لن يصيروا حتى يهاجموه ليفضّوا عليه عاصمته . لذلك استمد أهل دُنْبَاوَنْد وطبرستان وقُومَس وجُرجان وقال لهم : قد علمتم إن هؤلاء حلُّوا بالريّ أنه لا مقام لكم ، فأمدّوه بقوّات اجتمعت فكانت أضعاف القوات التى سار بها نعيم عدداً وعُدّة ، وتحصنت هذه القوات كلها بالرى ، وكان سياوخش قد زاد معاقلها مناعة وقوة ؛ فلما رأى ما اجتمع فى هذه المعاقل أيقن أن المسلمين لن يظفروا به ، ولن يستطيعوا أن يفضّوا عليه حصونه .

لم يكن عجباً أن يجتمع أهل الشَّمال للدفاع عن الرى ؛ فقد كانت العاصمة الكبيرة لهذه الأرجاء ، والحصن الحصين تلوذ به وتلجأ إليه . وكان بها من المعابد القائمة حول بيوت النار ما جعل نفوس كثيرين تهوى إلى زيارتها فى المواسم الدينية ، وترى فى الاعتداء عليها اعتداء على قدس يجب الدفاع عنه . ثم إنها كانت بموقعها من الأقاليم المحيطة بها ، ملتقى تجارة واسعة تجْلب إليها من الشرق ومن الغرب ، وتجعل أهلها فى رخاء ورَفْه عيش . وكان أهلها وأهل الأقاليم المحيطة بها مطمئنين لمناعتها ، مطمئنين بذلك إلى مُقامهم بها أو فى جوارها . فلما رأوها تتعرّض للغزو تعاهدوا للدفاع عنها وذهبوا بجموعهم إلى واج رُوذ يصدّون غُزاتها ، ثم لم تَثْنهم الهزيمة عن الاجتماع كرة أخرى والتحصن بالمدينة والدفاع عنها .

ولعل حماستهم فى الدفاع عنها كانت تكلّف المسلمين الضحايا الكثيرة لفتحها ، لولا أن أرادت الأقدار أن يتم هذا الفتح بأيسر مما قدَّر له نُعيم وأصحابه ؛ فقد أساء سياوخش ملك الرى لقاء الزينبى أبو الفرخان بعد وقعة واج روذ ، وعنّفه على ارتداده أمام المسلمين وعزله عن عمله . وأحفظ الزينبى ما حدث ، فخرج من الرى حين عرَف مقدم نعيم لفتحها ، فلقيه بظاهرها فتحدّث إليه مسالماً وحالفه على سياوخش . ونزل المسلمون فى سَفْح جبل الرى ، فلقيهم حُماتها وأنشبوا معهم قتالاً لم ينته آخر النهار إلى ظفر أىّ الفريقين . فلما كان الليل قال الزينبى لنُعيم : إن القوم كثير وأنت فى قِـلَّة فابعث معى خيلاً أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به وناهدْهم أنت ، فإنهم إذا خرجوا إليك لم يثبتوا لك . واطمأنّ نعيم لقوله . فبعث معه من الليل خيلاً عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو ، فأدخلهم الزينبى المدينة دون أن يشعر بهم أحد . وبات نعيم يشاغل حُماة الرى يرميهم بالنبل والنُشّاب فشغلهم عما يدور داخل مدينتهم . فلما كان الفجر برزت خيل المسلمين بالمدينة وعلت أصوات الفرسان بالتكبير ، فأيقن الفرس حين سمعوه أنهم أخذوا على غرَّة من ورائهم فانهزموا ، فاتبعهم المسلمون يُمعنون فيهم قتلا ، ودخل نعيم المدينة ، وانهزم سياوخش فلم يقف له أحد على أثر . واستفاء المسلمون من الرىّ نحواً من فىء المدائن ، وكتب نعيم إلى عمر بالفتح وبعث إليه بأخماس الفىء .

ما عسى أن يكون مصير الرى بعد أن تم فتحها ؟ أليس من أبنائها من يصالح المسلمين عليها ؟ نعم ! صالح نعيم الزينبى على أهل الرى ونصبه مكان سياوخش مرزباناً عليهم بعد أن هدم قلاعهم وخرَّب حصونهم ، وأمر ببناء مدينة جديدة بجوار مدينتهم العتيقة . بذلك سقط آل بهـرام ، وآل شرَف المُلك من قِبَل المسلمين إلى الزينبى الأمير وأبنائه ، وبقيت الرى مع ما أصابها مدينة عظيمة وثغراً من ثغور المسلمين فى عهد بنى أمية وبنى العباس . على أن نجمها هوى من بعدُ ومنذ بنيت طهران على مقربة منها إلى شمالها الغربى ، وإن بقيت أطلالها إلى اليوم بارزة للعِيان تحدِّث عما كان لها حين عزّها من جلال وعظمة .

وكان نصر المسلمين بالرى حاسماً ؛ لذلك أسرعت المدن والأقاليم القريبة منها تطلب الصلح وتؤدى الجزية . فلما سار سُوَيْد بن مقرِّن بأمر عمر إلى قُومَس لم يقم له أحد فأخذها سلْماً ، وعسكر بها وصالح أهلها . وكان أهل دنباوند قد صالحوا أخاه نُعيْماً بعد انهزام الحلفاء عن الرىّ وعود كل منهم إلى مقره .

ودنباوند مدينة قائمة على جبل قريب من الرى ، وكان أهلها قد دخلوا حصون الرى للدفاع عنها ، فلما فتحت المدينة أبوابها ، وجلا حلفاؤها ومنهم أهل دنباوند مرتدين إلى منازلهم لم يكن أمام أهل دنباوند غير الصلح عقدوه على جزية مائتى ألف درهم يدفعونها كل سنة ، على ألاّ يُغارَ على أرضهم وألا يُدْخَلَ عليهم بغير إذنهم ما وفوا بعهدهم . أما قومس فكورة كبيرة واسعة بها مدن وقرى ومزارع ، تقع إلى الجنوب من جبل طَبَرِسْتان ممتدة بين الرى ونَيسابور ، وتفصل طبرستان بينها وبين بحر قزوين .

بفتح الرى وصلح قُومَس ودنباوند لم يبق بين المسلمين وشواطئ قزوين[1] من أرض فارس غير جُرجان وطبرستان وأذربيجان ، فلو أنهم فتحوها وصالحوا أهلها لبلغوا أقصى الشمال فى هذه المنطقة من ملك كسرى . وقد عسكر سويد بن مقرِّن بعد صلح قومس ببسطام ، وكاتب ملك جرجان يدعوه إلى الصلح أو يسير إليه بجنوده . وبادر الملك الفارسى فصالحه عن دهستان وجرجان على الجزية يؤدِّيها أهلها ولهم الذِّمة والمَنَعة والأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم . وأدمج فى هذا الصلح نص لم يُؤلَف من قبل مثيل له : « ومن استعنا به منكم فله جزاؤه على معونته عوضاً عن جزيته » . ولا أدلّ من هذا النص على أن الجزية إنما كانت تُفرَض مقابل منع المسلمين من تغلّبوا عليهم ، فإذا دفع هؤلاء عن أنفسهم أو أعانوا المسلمين كان لهم جزاؤهم .

تقع جرجان إلى الجنوب الشرقى من شاطئ قَزْوين ، وتقع طَبَرِسْتان إلى الجنوب من هذا الشاطئ مجاورة جرجان ، وتقع أذربيجان إلى جنوبه الغربى مجاورة طبرستان . وإذ رأى ملك طبرستان أن المسلمين أحاطوا به من الجنوب باستيلائهم على الرى ومصالحتهم أهل قومس ، ومن الشرق بصلحهم مع أهل جرجان ؛ وأنه لم يبق له منفذ إلى أرض فارس إلا من طريق أذربيجان المهددة بالغزو هى كذلك ، فقد آثر الصلح وراسل سُوَيْداً فيه ، فتوادعا وتصالحا على طبرستان وجبل جيلان بأن يدفع أهلها جزية كل عام ، وهم من بعد ذلك آمنون لا يغار عليهم ولا يتطرق أحد إلى أرضهم إلا بإذنهم .

تجاور أذربيجان طبرستان من الغرب ، ويتاخم شمالها بلاد الديلم ، كما يتاخم جنوبها بلاد العراق الغربى وبلاد الجزيرة . وكانت أَرْدَبِيل الواقعة عل مقربة من مكان تبريز اليوم أجل مدنها . وهى بلاد جبلية ترتفع أرضها فوق سطح البحر نحو خمسمائة وألف متر ، وبها قِمَمٌ يبلغ ارتفاعها أربعة آلاف من الأمتار . وكلمة أذربيجان بالفارسية

---

(١) بحر قزوين هو بحر الخزر .

معناها أرض النار أو معابد النار . وإنما أطلق على هذا الإقليم هذا الاسم لكثرة معابدالنار التى كانت قائمة فى ذلك الحين به ، فلما خمدت فى الفرس عبادة النار ودان أهلها بالإسلام أبدل اسم أذربيجان باسم مازندجران .

بينما كان سويد بن مقرِّن يسير فى جرجان وفى طبرستان ويعقد الصلح مع أهلهما كان أخوه نُعيم ينظِّم شئونها مستعيناً بالزينبى الذى أقامه والياً عليها . فلما اطمأن إلى أمرها أمد عتبة بن فَرْقَدُ وبكير بن عبد الله اللذين سارا بأمر عمر لإخضاع أذربيجان بسماك بن خَرَشة الأنصارى فى قوة من غُزاة الرىّ . وإن بكيراً ليتقدم فى قوَّاته إذ لقيه إسفنديار بن الفرّخزاد عائداً فى جنوده من هزيمة واج روذ ، فالتحم الفريقان فى قتال عنيف انتهى بإسفنديار إلى الهزيمة والأسر ، ولم يقتله بكير بل أمسكه عنده . ذلك أن إسفنديار قال له : الصلح أحب إليك أم الحرب ؟ وأجاب بكير : بل الصلح ، فاستطرد القائد الفارسى قائلا : فأمسكنى عندك ، فإن أهل أذربيجان إن لم أصالح عليهم أو أجئ إليهم لم يقيموا لك وجلَوا إلى الجبال فتحصَّنوا إلى يوم ما . وتحطمت مقاومة أذربيجان حين تقدم عُتْبة بن فرقد إلى حيث عسكر بهرام أخو إسفنديار فهزمه وألجأه إلى الفرار . عند ذلك صالح عتبة إسفنديار عليها وأعطاه كتاباً بالأمان لأهل أذربيجان ، سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مِللهَا على أنفسهم وأموالهم ومِللِهم وشرائعهم ، على أن يؤدُّوا الجزية على قدر طاقتهم .

كان طبيعياً أن يتابع المسلمون مسيرتهم فى شمال فارس حتى لا يبقى به لمقاومة أثر . وكان على بحر قزوين إلى جانب أذربيجان فُرْضة يقال لها الباب أو باب الأبواب ، وكانت محصنة ، قد وُضعت على أفواهها سلاسل فلا مخرج لسفينة منها ولا مدخل لسفينة إليها إلا بإذن . وكان أمير الباب يدعى شَهْرَبَرَاز ، فلما عرف مقْدَم المسلمين كتب إلى أميرهم عبد الرحمن بن ربيعة واستأمنه ، ثم لقيه وقال : « إنى بإزاء عدوٍّ كلِبٍ وأمم مختلفة ، ولست أنا من القَبَج ولا من الأرمن فى شىء . وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى ، فأنا منكم ، ويدى مع أيديكم ، وجزيتى إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون ، فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا بعدوكم » . فبعث به عبد الرحمن إلى سُراقة بن عمرو ، وكان الأمير على الجيش ، فأعاد عليه شهر براز حديثه . وقبل منه عبد الرحمن فأعفى من يقوم مع المسلمين فى حرب العدو ، أما من أقام ولم ينهض فعليه الجزاء ، وصار ذلك سُنَّة فيمن يحارب العدوّ من المشركين ، وقد كتب به سُراقة إلى

عمر بن الخطاب فأجازه وحسَّنه . .

فرغ سُراقة من الباب فوجّه قواده إلى الجبال المحيطة بها ، فرضى أهلها الجزية دون قتال ؛ إلا مُوقان ، فإنها تحصَّنت من بكير ففضَّها على أهلها ، ثم تراجعوا على الجزية . وفى هذه الأثناء مات سُراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة ، وخرج عبد الرحمن يريد غزو الترك ، فقال له شهر براز : إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب ، وأجابه عبد الرحمن : لكنا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم فى ديارهم . وتالله إن معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا فى الإمعان لبلغت بهم الروم ! وسأله الأمير الفارسى عن هؤلاء الأقوام من هم ؟ فأجابه : أقوام صحبوا رسول الله ودخلوا فى هذا الأمر بنية ، كانوا أصحاب حياء وتكرّم فى الجاهلية ؛ فازداد حياؤهم وتكرمَهم ، فلا يزال هذا الأمر لهم دائماً ، ولا يزال النصر معهم ، حتى يغيِّرهم من يليهم ، وحتى يُلْفَتُوا عن حالهم . على أنه لم يمض فى فتح الترك إذ جاءته الأنباء بوفاة عمر ، وكان أهل هذه المنطقة قد اعتصموا من المسلمين بالجبال ، فعاد عنهم زمناً ثم عاد إلى غزوهم فى عهد عثمان .

ها قد رأيت كيف تحطَّمت مقاومة الشمال الفارسى كله بعد هَمَذَان والرى ، وكيف كان ملوكه ومرازبته يسارعون فيطلبون الصلح فتقبل طائفة منهم الجزية ، وتؤثر طائفة أن يقف القادرون من أبنائها محاربين فى صف المسلمين لتُعْفَى من ذلّ هذه الجزية ؛ ثم رأيت سائر الولايات الفارسية ، فما وراء العراق العجمى إلى الشرق وإلى الجنوب ، لا تمدّ إلى هذا الشمال يد معونة . أفكان ذلك غدراً بالشمال وتخلياً عنه ؟ أم شُغلت هذه الولايات بنفسها فلم تفكر فيه ؟ من حقك أن تلتمس لهذه الولايات عن قعودها عذراً ؛ فقد روَّعها المسلمون بانتصارهم فى شتَّى الأرجاء من مملكتهم ، فشلَّ الروع تفكيرهم فى إمداد غيرهم لمقاومة قوة حالفتها الأقدار فلا تقف قوة فى وجهها . ثم إن الولايات جميعها كانت تتوقَّع أن يُغير المسلمون عليها ، وتفزع إذ تتخيلهم يجتاحون أرضها ، فكانت منهم فى موقف الخائف الوجل يريد أن يدفع عن نفسه خطراً ما أضعف رجاءه فى القدرة على دفعه ، ولن يطلب أحد إلى مذعور أن يمدّ لغيره يد معونة وهو عاجز عن عون نفسه .

بل لم يكن توقُّعهم غزو المسلمين مجرد وهم يجسمه خيالهم ؛ فقد كانت الأحوال كلها تؤيده وتجعله حقيقة تراها أعينهم ولا ينقصُها إلا الزمن لتدهمهم بكل آثارها . وكيف كان لهم أن يتناسوها وقد أصبح المسلمون فى خوزستان وفى العراق العجمى

يجاورون ولاية فارس من شمالها ، ويجاورون خراسان من غربها ، فإذا تخطوا إلى فارس وإلى خراسان انفسحت أمامهم كَرْمان ومُكْران فى الجنوب ، وأصبح ما وراء خراسان إلى أقصى الحدود من أرض الفرس ميداناً لانسياحهم . وقد اعتاد الفرس أن يروا غُزاتهم ينحدرون إليهم ويجتاحون أرضهم كأنهم القدر النازل لا محيص منه ولا سبيل لاتقائه . بل لقد ذكر أهل ولاية فارس ما أصابهم منذ سنين حين تخطَّى العلاء بن الحضرمىّ خليج فارس على السفن إليهم ، وما كان بينه وبينهم من قتال أعانتهم الأقدار يومئذ فيه . ترى أتعينهم الأقدار اليوم كما أعانتهم بالأمس ؟ أم ينحدر المسلمون إليهم من البصرة ويتخطون إليهم الخليج الفارسى من البحرين ، ثم يجتاحون أرضهم كما اجتاحوا العراق وخوزستان وأصفهان والرَّىّ وغيرها من أراضى الملك الأعظم ؟

لم يكد نُعيم بن مقرِّن يفتح الرىّ حتى أذن عمر للأمراء الذين عقد لهم الألوية أن ينساحوا فى أرض الفرس كلها ، فاندفعت القوات المعسكرة بأصفهان إلى خراسان وتدفَّقت قوات من البصرة ومن البحرين إلى فارس وكرمان ، وصارت الأمداد من بلاد العرب تعزز الجيوش المنتشرة فى مختلف الأرجاء من أرض كسرى ، ولا يشك عمر فى أن الله سيفتح عليه هذه الأرض جميعاً ويورثها المسلمين . فهو لا يريد أن يدع للفرس متنفساً يجتمع فى أثنائه كلمتهم أو تفكر فى أثنائه ولاية فى أمر غيرها . وكذلك أصبحت بلاد كسرى من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب مسرحاً لحرب عَوان كانت جيوش المسلمين فى كل غزواتها قلة أبداً ، ثم كانت مع ذلك منتصرة فيها جميعاً . وكان الملك الشريد كسرى يزدجرد يتتبَّع أخبار هذا القتال حيثما كان من منازل فراره فلا يرى لنفسه ملجأ يأوى إليه ليستقر فيه ، بل يضطر إلى النقلة من ملجأ إلى ملجأ ، والاعتصام بمدينة بعد مدينة ، فتنفضه الملاجئ كلها فلا يجد فى مدينة عاصماً ، فيستأنف الفرار والنقلة حتى يخرج من بلاده كشرِّ ما يخرج مليك طريد يلتمس النصرة من قوم غير قومه ، وناس غير أهله .

اندفع المسلمون من البحرين ومن البصرة لغزو ولاية فارس ، فركب عثمان بن أبى العاص الثقفى السفن عابراً الخليج الفارسى إلى جزيرة أيزَكاوان فاستولى عليها ، ثم تخطَّاها إلى أرض فارس ، فسار بجنوده إلى مدينة تَوَّج الحصينة يحاصرها . هناك ألفى مُجاشع بن مسعود وقد انحدر من البصرة فاستوقفه الفرس عند توَّج . وقاومت المدينة الحصينة هذه القوات المتدفقة إليها من الشمال ومن الغرب ما استطاعت فلما طال بها الحصار وهنت مقاومتها ،

ففتحها المسلمون وقتلوا من المدافعين عنها مقتلة عظيمة ، واحتووا ما فيها وفرضوا عليها الجزية ، وكذلك أذعنت توج منكِّسة الرأس . ولقد طالما فاخرت من قبل بأنها ردَّت العلاء بن الحضرمى على أعقابه .

وسار مجاشع إلى سابور وأرْدَشير ففتحهما بعد قتال . أما عثمان بن أبي العاص فسار يريد إصْطَخْر عاصمة هذا الإقليم ومدينته الكبرى . وجمع الهربذ كل قواته للدفاع عن العاصمة العتيدة وقد عزم أن يرد غُزاتها أو يموت دونها . ذلك أن إصطخر كان لها فى نفوس الفرس مكانة سامية بلغت حد القُدْسية ؛ فقد كانت أول عاصمة للفرس حين نزلوا هذا الإقليم من أرض إيران ، كما كانت موطن الساسانيين أكاسرة الفرس فى الزمن الذى نتحدّث عنه . فساسان جدُّ الملك أردشير الأول كان قَيِّماً على بيت نار فى إصطخر يقال له بيت نار الإلهة أناهيذ . وكانت المدينة بعد قيام الساسانيين تُعَدُّ مركزاً دينيًّا للدولة ؟ ثم ظلَّت عاصمتها زمناً غير قصير ، وبها لذلك مقابر الكثيرين من ملوكها . لا عجب وذلك شأنها أن يجمع الفرس جموعهم لصد غُزاتها ، وأن يعقدوا العزم على الاستماتة فى الدفاع عنها .

وتجاور إصطخر موقع برسوبوليس القديمة عاصمة هذا الإقليم فى عهد الأكمينيين الذين سبقوا بنى ساسان . فالصخور التى دُفن بها بعض الملوك الساسانيين بإصطخر تجاور مقابر مَنْ قبلهم من ملوك الأكمينيين ببرسوبوليس . والراجح أن إصطخر أنشئت عقب اضمحلال برسوبوليس فى أعقاب غزو الإسكندر الأكبر ؛ ولذلك استخدمت أطلالها فى بناء كثير من عمائر المدينة الجديدة . وأسرعت إصطخر بعد بنائها إلى النماء والازدهار إذ أصبحت العاصمة الرسمية لدولة بنى ساسان ، ثم أدَّى مركزها الدينى إلى أن تقام بها أفخم العمائر . وصف المَقْدِسى مسجدها الكبير وذكر عمده الكثيرة الهائلة ورءوسها الضخمة المنقوشة على صورة رأس الثور ، وروى أن هذا المسجد كان بيت نار فى العهد الغابر ، استعملت فى بنائه موادّ أخذت من برسوبوليس . وقد أشاد المقدسى بعظمة الجسر المقام على النهر فى إصطخر كما أشاد بجمال حدائقها الغنَّاء . وكانت الجبال التى تجاورها غنيَّة بالمعادن المختلفة ، فكان ذلك سبباً فى زيادة ثمائها وازدهارها .

جمع الهربذ كل قوَّاته للدفاع عن المدينة العتيدة ، وخرج إلى ظاهرها بضاحية جُـور ، وهناك لقيه عثمان بن أبى العاص فانتصر عليه ورده إلى أسوار إصطخر .

وتحصّنت القوّات بالمدينة وقاومت المسلمين مقاومة عنيفة . لكن الأمداد كانت تصل تباعاً إلى المسلمين فتزيد الحصار على الفرس ضيقاً . وطال بالهربز وجنوده ما يلاقون من شدة هذا الحصار فوهنت عزائمهم ، وفتحت المدينة أبوابها ، ودخلها المسلمون فقتلوا حماتها وأصابوا منها ما شاءوا وفرَّ من أهلها من فرَّ . ثم دعا ابن أبى العاص الناس إلى الجـزاء والذِّمة فعادوا وعاد الهربز ، ونزلوا جميعاً على حكم الغُزاة .

وبلغ عثمان أن بعض المسلمين أخذ من المغْنم لنفسه قبل قسمة الفيء، فقام فى الناس فقال : « إن الله إذا أراد بقوم خيراً كفّهم ووفَر أمانتهم ، فاحفظوها ؛ فإن أوّل ما تفقدون من دينكم الأمانة ، فإذا فقدتموها جدّد لكم كل يوم فقدان شيء من أموركم » . وجمع عثمان الفيء وكان عظيماً ، فخمسه وبعث إلى الخليفة بخمسه . وأكبر عمر فعال عثمان فأقامه والياً على البحرين .

ترى أ أذعنت إصطخر لما أصابها عن رضاً ونزلت على حكم القدر ؟ كلا ! بل بَقى ماضيها المجيد يصوِّر لها هول ما أصابها ويحرِّك دخيلتها فلا تفتأ الحين بعد الحين تضطرب بنُذرُ الثورة والانتقاض . وقد انتقضت بعد قليل من صلح الهربز مع ابن أبى العاص ثم انتقضت كرة أخرى فى عهد عثمان بن عفّان ، فكان نصيبها فى المرتين أن رُدّت إلى الطاعة وأكرهت على احترام العهد .

ومما ساعد انتقاضها فى المرة الأولى أن شَهْرَك ملك فارس كان قريباً من كسرى فى مقره بكَرْمان ، فلما عرف ما أصاب إصطخر بعث يحرِّض أهلها ويبذر بذور الثورة فى الإقليم كله ، ويذكّر الناس بمواقفهم المجيدة قبل سنين قليلة حين جاء العلاء بن الحضرمى من البحرين يحاول غزوهم . وانتقضت إصطخر ، وانتقض فى فارس كل مكان استطاع الانتقاض ، وتابعوا شهرك وانضموا إلى لوائه . وسار الحَكَم بن أبي العاص أخو عثمان للقاء شهرك ، فنزل فى تَوَّج وحصَّنها واتخذها مقر قيادته ، وجعل يُغير منها على ما حوله من المدن ثم يعود إليها يسوق أمامه مغانمه . ولم تَسْلَم أقالم سابور وأردشير وأرَجان وإصطخر من هذه الغارات . وأثارت فعال المسلمين شهرك فسار بقواته يلقى الحكم بتَوَّج ، واستبقى فى مؤخرته كتيبة أمر رجالها بقتل كل فارسى يرتد عن الميدان . والتقى هو والحكم فى موقعة حامية ظلت متأججة الوطيس زمناً غير قليل ، ولا يعرف أحد لمن يكون النصر فيها . على أن غبارها ما لبث أن تكشَّف عن انتصار المسلمين وفرار الفرس ومقتل شهرك وابنه . وكان لهذه المعركة من الأثر أن حطمت ما بقى من قوة

معنوية فى نفوس الناس ، حتى لقد انتقل عثمان بن أبي العاص من البحرين لنجدة أخيه فكان يسير من هذا الإقليم الفسيح حيث شاء فلا يلقى مقاومة تذكر .

ويذكر البلاذرىّ أن أبا موسى الأشعرى سار بأمر عمر من البصرة . وأنه انضم إلى عثمان بن أبي العاص فى هذه المرحلة من قتال فارس ، ففتح معه أرّجان صلحاً على الجزية والخراج ، ثم فتحا شيراز على أن يكون أهلها أهل ذمة يؤدون الخراج إلا مَنْ أحبَّ منهم الجلاء ، وألا يُقْتَلوا ولا يُسْتَعبَدوا ، كما فتحا سِينير من إقليم أردشير وتركا أهلها عُمَّاراً للأرض . وأتى عثمان بن أبي العاص دَرَابْجِرْد ، وكانت منزل علم ودين لأهل فارس ، فصالحه الهربز عنها على مال أعطاه إياه ، وعلى مساواة أهلها بغيرهم ممن فُتحت بلادهم بفارس ، ثم صالحه مثل هذا الصلح على مدينة فَسَا القريبة من درابجرد .

يخالف الطبرى ومن أخذ عنه ، رواية البلاذرىّ فى فتح فَسَا ودرابجرد . ويذكرون أن سارية بن زُنَيْم هو الذى قصد إلى هذين البلدين ، فلما انتهى إلى عسكر الفرس بهما نزل عليهم وحاصرهم وأطال حصارهم ، فاستمدوا فاجتمع إليهم أكرادُ فارس وأتاهم الفرس من كل جانب ، فلما صاروا فى قوة لا قِبَلَ للمسلمين بها عزموا مهاجمتهم فى غدهم . ورأى عمر بن الخطاب تلك الليلة فيما يرى النائم انبلاج الصبح وابتداء المعركة وموقف الفريقين وعددهم ، وأن المسلمين بصحراء إن أقاموا فيها أحيط بهم ، وإن لجئوا منها إلى جبل هناك جعلوه خلفهم لم يؤتَوْا إلا من وجه واحد فكان ذلك أكفل لنصرهم . فلما أصبح وكان فى الساعة التى رأى فيها ما رأى أمر مناديه فنادى ، الصلاةُ جامعة ، ثم قام فى الناس فقال : أيها الناس : إني رأيت هذين الجمعين وأخبرهم بما رأى ، ثم صاح وهو يخطب : يا سارية بن زُنَيْم ! الجبلَ ، الجبلَ ، ثم أقبل على الناس وقال : إن لله جنوداً ، ولعل بعضها أن يبلغهم !

فى تلك الساعة أجمع سارية ومن معه على الاستناد إلى الجبل ، ففعلوا وقاتلوا الفرس من وجه واحد فظفروا بهم وقتلوا منهم ، واستولوا فى المغانم على سَفَطٍ فيه جواهر استوهبه سارية من الجند وبعث به وبالفتح إلى عمر . وبلغ رسول سارية المدينة ، فألفى عمر يُطعم الناس فأكل معهم فلما انصرف تبعه الرجل إلى داره ، فظن عمر أنه لم يشبع فأدخله معه . وجيء بغذاء الخليفة ، خبز وزيت وملح جريش ، فنظر عمر إليه ونادى امرأته : ألا تخرجين يا هذه فتأكلين ؟ فقالت : إني لأسمع حسّ رجل . فقال عمر : أجل ! فقالت : لو أردت أن أبرز للرجال اشتريت لى غير هذه الكسوة ! . وردَّ عليها

عمر : أوما ترضين أن يقال أم كلثوم بنت عليٍّ وامرأة عمر ؟ ! وأجابته أم كلثوم من خدْرها إجابة عتب بل سخط : ما أقلَّ غناء ذلك عنى ! فالتفت عمر للرجل فقال : ادْنُ فكلْ ، فلو كانت راضية لكان غداؤنا أطيب مما ترى !

فرغ عمر من طعامه ، فذكر له الرجل أنباء سارية فسُرِّى عنه ، ثم ذكر له نبأ السفط وأن سارية استوهبه من المسلمين وجعله لأمير المؤمنين ، فتجهَّم وصاح به ؛ لا ولا كرامةً ، حتى تَقْدَم على ذلك الجند فتقسمه بينهم ؛ وفتح الباب يطرد الرجل من بيته واعتذر الرجل وذكر أنه أنضى بعيره ، فأبدله عمر بعيراً من إبل الصدقة ، وجعل بعيره مكانه ، ورجع الرجل مغضوباً عليه محروماً .

هذه رواية الطبرى ومن أخذ عنه فى فتح فسا ودرابجرد ، وهى الرواية المشهورة فإن تكن هى الصحيحة فمن حقك أن تسأل : أثمَّ صلة بين صيحة عمر يا ساريةُ الجبلَ ، وبين استناد سارية وأصحابه إلى الجبل فى تلك اللحظة ؟ أم هى مصادفة بحتة . فعمر فى شغله بشئون المسلمين الذين يقاتلون فى فارس قد رأى فى نومه ما رأى ، وسارية فى موقفه الحربي قد استند بجنده إلى الجبل ؟ تجرى رواية بأن أهل المدينة سألوا رسول سارية إذ كان بين أظهرهم : هل سمعوا بفارس شيئاً يوم الوقعة ، فقال : نعم ! سمعنا : « يا سارية الجبلَ الجبلَ » ، وقد كدنا نهلك : فلجأنا إليه ففتح الله علينا . ولا أراني أجد تفسيراً علمياً يقنعنى بهذه الرواية . فالوحى قد انتهى بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والإذاعة اللاسلكية لم تكن معروفة ، بل لم تكن تجرى فى خيال أحد ذلك العهد . ولست أستطيع أن أقطع بأن الأمر جاء من طريق انتقال الأفكار ، وأن نفحة من روح عمر تسلّطت على نفس سارية ، فكان ينفِّذ أمر الخليفة كما ينفذ النائم فى التنويم المغناطيسى أمر منوِّمه . ومع ذلك فهذا التأويل الأخير ، على تعذُّر تصوره ، أدنى إلى تفسير هذه الرواية إن صحت . وفى هذه الحالة يكون سارية ، إذ أمر أصحابه أن يستندوا إلى الجبل ، قد ذكر لهم أنه سمع هذا الأمر فى صوت من السماء .

بينما كانت جنود ابن أبي العاص تسير فى إقليم فارس كان سُهَيْل بن عدىٍّ يغزو كرمان ، وكان الحكم بن عمرو التغلبي يغزو مُكْران . ولم يثبت أهل كرمان للمسلمين ففتحوا بلادهم وغنموا منهم من الإبل والشاء ما شاء الله أن يغنموا[1] أما أهل مكران فتحصنوا بنهر مكران ، ودارت بينهم وبين غُزاتهم معركة عظيمة انتهت بظفر

(١) فى رواية أن الذى فتح كرمان هو عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى .

المسلمين الذين أمعنوا فى عدوِّهم قتلاً ثم اتّبعوهم يقتلونهم أياماً حتى انتهوا إلى النهر ، ثم رجعوا فأقاموا بمكران . وكتب الحكم إلى عمر بالفتح ، وبعث إليه بالأخماس وفيها فيلة مع صُحَار العَبْدِيّ[1] ، فأمر عمر ببيع الفيلة وقسم أثمانها على الفاتحين .

كان يزدجرد بكرمان حين سار المسلمون إليها يفتحونها . فلما رآها لا تقاوم أكثر مما قاوم غيرها ، فرَّ منها إلى خُراسان وأكبر رجائه أن يثبت أهلها وأهل سِجِسْتان للمسلمين . وإنما بعث إلى نفسه هذا الرجاء أن خراسان وسجستان كان بينهما وبين البصرة والكوفة وغيرهما من مَسَالح المسلمين آمادٌ غير قليلة ؛ فليس إرسال الجنود لغزوهما يسيراً كإرسالها إلى العراق العجمى ، أو إلى فارس وكرمان .

تقع سجستان إلى الشمال من مكران . وكان عمر بن الخطاب قد عقد لواءها لعاصم بن عمرو ، فقصد إليه ولحقه عبد الله بن عمير بها . ولقى أهل سجستان غُزاتهم على تخوم بلادهم ، فلم يثبتوا لهم بل انسحبوا إلى الداخل وتحصَّنوا بزَرَنْجَ عاصمتهم . وحصرهم المسلمون بزَرَنج ، ثم بنَوا كتائبهم تغير على ما حول العاصمة وتغنم وتسبى . وأيقن المدافعون عن زرنج أن طول الحصار أضرَّ بإقليمهم ، فطلبوا الصلح على أن تكون مزارع سجستان حمى لا يطؤها المسلمون . وقبل المسلمون ما طلبوا ، ثم كانوا إذا ساروا تحاموا الأرض خشية أن يصيبوا منها شيئاً فينقضوا العهد ، فتقوم لأهل سجستان الحجة عليهم فلا يدفعوا الخراج ، وبذلك حفظ كل من الفريقين عهده وقام بواجبه .

كيف أسرعت سجستان إلى التسليم وهى فيما يقول المؤرخون : « أعظم من خراسان وأبعد فروجاً ، يقاتلون القندهار والترك وأمماً كثيرة » ؟ أيْسرُ التعليل أنهم رأوا كسرى يُسرع إلى الفرار كلما رأى جيوش المسلمين مقبلة على مكان يقيم به ، فكان طبيعيًا أن يقتدوا به وألاّ يقاوموا مقاومة تجرّ عليهم النكال . فلمَ يقاومون والملك الأعظم لا يقاوم ! ثم لِمَ يضحُّون بأرواحهم ، والملك الأعظم لا يضحى براحته !

ترى أيقاوم الملك الأعظم فى مقرِّه الأخير بخُراسان ؟ لم يكن له إلا أن يفعل ! فلو أنه فرَّ من خراسان كما فرَّ من حُلْوان ومن الرّىّ ومن أصبهان ومن كَرْمان لما بقى له فى أرض فارس ملجأ ، ولكان بين أن يُسْلِمَ نفسه لأعدائه وينزل على حكمهم كما فعل

---

(١) يروى أن عمر سأل صحاراً عن مكران ، وكان لا يأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذى يأتيه منه فقال صحار : « يا أمير المؤمنين ! أرض سهلها جبل ، وماؤها وشل ، وتمرها دقل ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل ، وشرها طويل ، والكثير بها قليل ، والقليل بها ضائع ، وما وراءها شر منها » . قال عمر : أسجاع أنت أم مخبر : فقال صحار : بل مخبر .

الهرمزان ، أو يتخطى تخوم بلاده إلى بلاد التتار أو بلاد الصين ، فيقيم فى حماية عاهلها يلتمس منه العون ، فإما أعانه فنصره على عدوه فردَّه إلى ملكه ، وإما تباطأ عنه فقضى فى مقرِّه حياة عار ومذلة لا نجاة له منها إلا أن يموت بائساً حزيناً .

كان يزدجرد مقيماً بمرو حين تخطى الأحنف بن قيس تخوم خراسان على رأس القوات التى عقد له عمر بن الخطاب لواءها . وخراسان بلاد واسعة ؛ تتاخم العراق العجمى من الغرب ، وأفغانستان والهند من الشرق ، وتقع كرمان وسجستان إلى جنوبها وتمتد فى الشمال إلى أقصى تخوم إيران . ومن أمهات مدنها نَيْسابور وهَراة ومَرْو وبَلْخ . وكانت خراسان فى ذلك العهد ذات ثروة زراعية ، كما كانت تُصنع بها المنسوجات القطنية والحريرية النفيسة . وقد طمع يزدجرد حين أقام بها يحرِّض أهلها ، فى أن تصد الغُزاة عما بقى له من أرض آبائه وأجداده ، ونسى أو تناسى أنه جمع قوات فارس كلها وقذف بها إلى نهاوَنْد ، فدارت الدائرة عليها ، وحطَّمها المسلمون هناك كل محطَّم .

والواقع أن المؤرخين المسلمين لم يبالغوا حين سمَّوا غزوة نهاوند فتح الفتوح ؛ فلم يكن الفرس يثبتون بعدها للمسلمين فى الوقائع الكثيرة التى دارت فى شمال فارس وفى جنوبها ، ولم تكن خُراسان أكثر من غيرها ثباتاً . دخلها الأحنف بن قيس من الطَّبَسين ، فلم يلق مقاومة تذكر حتى بلغ هراة . وهراة مدينة عظيمة قائمة فى قلب خُراسان ، تحف بها الجبال من كل جانب ، وتتشعَّب المياه فى دورها وطرقاتها ، ولها تجارة واسعة جعلتها من أكثر المدن رخاء وثروة ، وأتاحت لها أن تحتفظ داخلها بأقوات تكفيها الشهور الطوال . ثم إنها كانت إلى مناعة موقعها الطبيعى ، محصنة تحصيناً زادها منَعةً ، فكان بها حصون كثيرة تحيط بها ، وسور يردُّ غائلة المعتدين عليها . مع هذا كله لم يطل وقوف الأحنف بن قيس أمامها ، بل فتحها عنوةً فدانت له وصالحته .

كان سقوط هَراةَ نذيراً بسقوط خُراسان كلها . وقد خلَّف الأحنف فيها كتيبة من جنده ، وبعث بقوات إلى نيسابور وإلى سَرَخْس ، وسار بنفسه على رأس الجيش يريد مَرْو الشَّاهِجان حيث يقيم يزدجرد . ومرو هذه تقع إلى شمال هراة وتقع نَيسابور بينهما . وكانت مرو عاصمة خراسان ومدينتها الكبرى . لكن موقعها الطبيعىّ لم يكن فى مناعة موقع هراة ؛ فقد كانت فى أرض مستوية بعيدة عن الجبال ، وكانت المياه والاقوات حولها وفيرة ميسورة . لذلك لم يلبث يزدجرد حين سمع بمسيرة الأحنف إلى مرو أن خرج إلى مَرْو الروذ ، وهى مدينة قريبة منها ، تقوم على نهر عظيم يمكن التحصن به .

لكن الأحنف لم يمهله حتى يتحصن . فقد جاءته أمداد من الكوفة استطاع بها أن يتابع مسيرته ، وأن يُزعج كسرى مرة أخرى . فيخرج من مرو الروذ إلى بَلْخ . ونزل الأحنف مرو الروذ ، وقدم أهل الكوفة فساروا إلى بلخ ثم اتَّبعهم الأحنف حين حاصروا المدينة القائمة على تخوم فارس وطَخَرِسْتان . وكان طبيعيًّا ألاّ تقاوم بلخ أكثر مما قاومت هراة أو مَرْو . وكان طبيعيًّا أن يفرَّ يزدجرد منها ، فهو قد جعل الفرار أمام المسلمين دأبه وديدنه . ودخل الأحنف بَلْخ على رأس جند الكوفة ، فلما اطمأن إلى إذعانها أقام ربْعِي بن عامر عليها وعلى ما حولها . وعاد هو فنزل مرو الروذ واتخذها معسكراً لجنده ومقرًّا لقيادته .

لم يبقَ ليزدجرد فى أرض مملكته موضع يقرّ فيه أو يفر إليه : لذلك فرَّ هذه المرة مجتازاً النهر الذى يفصل بين فارس وأرض التتار . فنزل بسَمرقَنْد على خاقان الترك لائذاً به لاجئاً إليه . وكان قد كتب إلى خاقان الترك وإلى إمبراطور الصين ، منذ كان بمرو الشاهجان يستمدُّهما ويستعديهما على المسلمين ، فأبطأ رسله إليهما ولم يعودوا إليه من عندهما بجواب . فلما دفعه المسلمون فلجأ إلى خاقان الترك ، دفعت النخوة هذا الأخير لنجدته . ولعل خاقان الترك رأى فى تقدم المسلمين ما يهدِّد ملكه ، فآثر أن يصدّهم قبل أن يجتازوا إليه أرضه ، واتخذ من لجوء كسرى إليه حجة يحرِّك بها نخوة قومه . وحشد خاقان جنده وحشد معهم أهل فَرْغانة والصُّغْد ، وسار بهم وبيزدجرد يلقى المسلمين بخراسان .

كان الأحنف بن قيس قد كتب فى هذه الأثناء إلى عمر بفتح خراسان وغلبته على المَرْوَيْن وبلخ . فلما قرأ عمر كتابه تهلل وجهه وصاح : هو الأحنف وهو سيد أهل الشرق ! لكنه ما لبث ، بعد هذا الإعجاب بقائده الظافر ، أن عاد إلى التفكير فيما يجب أن يعقب هذه الخطوة ، فعاوده حَذَرُه فقال : « لَوَدِدْت لو أنى لم أكن بعثت إلى خُراسان جنداً ، ولَوَددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار ! » ، وخشى أن يتقدم الأحنف بجنوده إلى ما وراء خُراسان من أرض المشرق ، كما خشى أن تأخذ المسلمين نشوة الظفر فتطغيهم فيعيثوا فى الأرض فساداً . فكتب إلى الأحنف يقول له : « أما بعد ، فلا تجوزنَّ النهر واقتصر على ما دونه . وقد عرفتم بأى شىء دخلتم على خراسان ، فداوموا على الذى دخلتم به يَدُمْ لكم النصر . وإياكم أن تعبُروا فتنفضوا ! » .

وقد كان لهذا الحذر من جانب عمر ما يسوِّغه ؛ فقد اتسعت رقعة الفتح فى الشرق فتناولت أرض فارس كلها ؛ وقد طالت خطوط المسلمين وتوزَّعت قوَّاتهم فى أرجاء الشام والعراق وفارس ، ولا يأمن الخليفة انتفاض بعض هذه البلاد على نحو ما حدث

إذ حُصِر أبو عبيدة بحمص . هذا إلى أن التقدُّم فيما وراء فارس قمين أن يثير به التتار والمغول دفاعاً عن أنفسهم وعن بلادهم . فمن الخير ومن حسن الرأى أن يقف الفتح زمناً حتى يستتب الأمر ويطمئن أهل البلاد المفتوحة إلى حكم المسلمين . ومن الخير لذلك ألا يتقدم الأحنف أو غير الأحنف من أمراء الجند إلى ما وراء تخوم فارس .

دلّت الحوادث من بعدُ على أن عمر كان حصيف الرّأى ، بعيد النظر فى حَذَره ؛ فقد سار خاقان الترك فى جنده ويزدجرد إلى جانبه فعبروا النهر إلى بلخ ، واضطرّوا جند الكوفة أن يتراجعوا إلى مرو الروذ ، وأن ينضموا إلى الأحنف وجنده . وتعقبهم خاقان فى تراجعهم وقد زاد عدد جنده بمن انضم إليهم من الفرس ، وبلغ مرو الروذ فى جمع عظيم مزعج . ورأى الأحنف دقة الموقف لكثرة عدوه ، كما رأى أنه إن تمّ له النصر فردّهم إلى بلخ وإلى ما وراء النهر لم يكن له أن يعبره ، فذلك رأى أمير المؤمنين . لهذا رأى أن ينسحب بجنوده إلى موضع يجرى نهر مرو الروذ أمامه ، ويقوم جبل خلفه ، حتى يكون النهر خندقاً ، بينه وبين عدوه ويكون الجبل حصيناً يكفل له ألا يؤتى من خلفه . فلما أصبح جمع الناسَ وقال لهم : « إنكم قليلٌ وإن عدوَّكم كثير فلا يهولنكم ، فكم من فئة قليلة غلبتْ فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ارتحلوا من مكانكم هذا فأسندوا إلى هذا الجبل فاجعلوه فى ظهوركم ، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم وقاتلوهم من وجه واحد » . وانسحب الجند إلى هذا المكان ، وأقبل الترك فوقفوا قُبالتهم ..

لم يكتف الأحنف بما صنع من ذلك ، بل حرص على أن يَعرف الترك وخاقانهم أمر عمر ألا يجتاز المسلمون النهر إلى بلادهم ، فبعث دسيساً أذاعوا هذا النبأ فيهم . واطمأنّ خاقان إلى صحة النبأ حين رأى المسلمين لا يحاولون اجتياز النهر إليهم ولايدعونهم لقتالهم . فقد أقام الجيشان أياماً والترك يغادون المسلمين ويراوحونهم ، فإذا جاء الليل تنحَّوا عنهم ، ثم لا يخرج المسلمون إليهم . وبعث الأحنف عيونه فدلّوه على مكان القوم بالليل ، ثم خرج ليلته طليعةً لأصحابه حتى كان قريباً من معسكر خاقان . فلما تنفّس الصبح خرج فارس ثان من طليعة الترك كأنما كان يتحدّى المسلمين ، فبارزه الأحنف فقتله ، وخرج فارس ثان من الطليعة فأورده الأحنف حتفه ، وخرج ثالث فكان مصيره مصير صاحبيه .

رجع الأحنف بعد ذلك إلى عسكره وهو على تعبئة : وخرج خاقان الترك من قبته فرأى الفرسان الثلاثة الذين قُتلوا ، ورأى النهر بينه وبين المسلمين ، ورأى الأحنف

ورجاله لا يدعون لقتال ، وأيقن صحة ما نُمى إليه من أمر عمر فقال لرجاله : قد طال مُقامنا وما لنا فى قتال هؤلاء القوم من خير ، فانصرفوا بنا . وارتدّ بالجيش حتى بلغ بلخ . وقال المسلمون للأحنف : ما ترى فى اتباعهم ؟ فأجابهم : أقيموا بمكانكم ودعوهم . بذلك ثبت فى نفس خاقان الترك اليقين بأن المسلمين لا يريدون قتاله ، وأنهم لن يجتازوا النهر عند بلخ إلى أرضه فازداد حرصاً على ترك فارس إلى عاصمة ملكه ، وترك المسلمين يصفّى يزدجرد معهم حسابه .

وكان يزدجرد حين انسحب جند الكوفة من بلخ وانضموا إلى الأحنف بمرو الروذ قد فَصلَ فى قوة فارسية من بلخ إلى مرو الشاهجان ، فحصر حارثة بن النعمان وَمَنْ معه من المسلمين بها ، واستخرج خزانته من موضعها ، وعهد إلى أمنائه فى السير عليها فلما انسحب خاقان من مرو إلى بلخ وبلغت يزدجرد أنباء عن عَزم هذا الحليف على الانسحاب من فارس كلها إلى بلاده ، أراد أن يحمل الخزائن وأن يلحق بحليفه . وكانت هذه الخزائن عظيمة تحوى جواهر كسرى وكل ما جمعه من خزائن فارس فى أثناء فراره . وكانت من ثمّ ثروة يخطئ تقديرها الإحصاء . وعرف أهل فارس عزم يزدجرد على حملها والفرار بها ، فسألوه : أى شىء تريد أن تصنع ؟ وأجابهم ، أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين . فقالوا له : مهلا ! إن هذا رأى سوء ؛ فإنك إنما تأتى قوماً فى مملكتهم وتدع أرضك وقومك . ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم فإنهم يلون بلادنا . وإن عدوًّا يلينا فى بلادنا أحب إلينا مملكةً من عدوٍّ يلينا فى غير بلادنا . فأبى عليهم وأبوا عليه . قالوا : فدع خزائننا نردُّها إلى بلادنا ومن يليها ولا نخرجها من بلادنا إلى غيرها . فخالفهم يزدجرد وأصرَّ على رأيه ، فخرجوا إليه وثاروا به وقاتلوه وحاشيته ، واستولوا على خزائنه ، ففرَّ فيمن معه إلى بلخ ، فإذا خاقان سبقه إلى الانسحاب منها ، فتابع فراره حتى بلغ فَرْغانة عاصمة الترك بسمرقند .

وأقبل أهل فارس على الأحنف فصالحوه وعاهدوه ، ودفعوا إليه خزائن كسرى وأمواله ، ورجعوا إلى بلادهم فاطمأنوا بها ، فسار الأحنف بجند الكوفة من مرو الروذ إلى بلخ فأنزلهم بها ، ثم عاد إلى مقر قيادته . وقد كان ما استفاءه المسلمون فى هذه المواقع عظيماً ، حتى بلغ نَفَلُ المحارب مثله يوم القادسية .

وكتب الأحنف إلى عمر بالفتح وبعث إليه بالأخماس ، فأمر بالكتاب فقرئ ثم خطب الناس ، فكان مما قاله : « ألا إن الله قد أهلك ملك المجوسية وفرّق شملهم

فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يُضِرُّ بمسلم . ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون . والله بالغٌ أمره ، ومنجزٌ وعده ، ومتبعٌ آخر ذلك أوّله ، فقوموا من أمره على رجل يوف لكم بعهده ، ويؤتكم وعده ، ولا تبدّلوا ولا تغيّروا فيستبدل الله بكم غيركم ؛ فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قِبَلِكم » .

فرَّ يزدجرد من أرض فارس إلى أرض الترك ؛ فتم بفراره القضاء على دولة الأكاسرة من بني ساسان . مع هذا أقام فى مقرّه سنين يداعب الأمل والغرور خياله أن يعود يوماً إلى ملك آبائه وأجداده . لذا كان يكاتب من يطمئن إلى مكاتبتهم من أهل خراسان ، طامعاً أن تثور الأرض بالمسلمين يوماً فتتاح له فرصة الثأر منهم . وقد ثارت خراسان فى زمن عثمان بن عفان ، فخيِّل إلى يزدجرد أن الفرصة تاحت ، فسار من بلاد الترك حتى نزل مرو واجتمع بمن كان يكاتبهم . لكن المسلمين ما لبثوا أن قضوا على الثورة وأخذوا بيدهم زمام الأمر فى الأرض التى كفرت بسلطانهم . عند ذلك رأى أصحاب يزدجرد أنه لا طاقة لهم بما يريد ، فاختلفوا معه وانفضوا من حوله ، فعاد يحاول الفِرار والرجعة من حيث أتى . لكن الفرار لم يكن هذه المرة يسيراً ؛ فقد تخلت عنه الأرض كلها ، وقد بث المسلمون عيونهم من الفرس ليحيطوا به ويقتادوه إليهم أسيراً . وعرف الملك الشريد ما دُبِّر له ، فأوى إلى طاحونة على شاطئ النهر ، وهناك قُتِل شرّ قتْلة . قيل إن أهل خراسان أحاطوا به فى مَلْجئه : ثم دخلوا عليه فقتلوه وألقوا بجثته فى النهـر . وقيل إن صاحب الطاحونة رأى عليه حُلته فلما نام قتله ، وإن الترك خفُّـوا لنجدته فوجدوه قتِـل ، فانتقموا له من صاحب الطاحونة وأهله فقتلوهم جميعاً ، ثم وضَعوا جُثته فى تابوت وحملها بعضهم إلى إصطخر . وقيل إن صاحب الطاحونة ذهب إلى أمير مرو فأخبره خبره ، فعرفه وقال لجنده : اذهبوا فجيئونى برأسه ، فدخل عليه الطحّان فقتله وجزّ رأسه ودفع بها إلى الجند ورمى بجثته فى النهر . وأيًّا ما صح من هذه الروايات فكلها تتفق على أن سليل الأكاسرة العظام قتِل وهو فى ملجئه عند ذلك الطحّان ، وبمقتله انتهت دولة الأكاسرة من بنى ساسان .

تمّ فتح فارس وفرار يزدجرد فى عهد عمر . فهل ترى أذعن الفرس لحكم المسلمين من أول الأمر عن طواعية ورضاً ؟ لا ريب فى أنهم رأوا هذا الحكم أكثر إنصافاً ومعدلة وأقل إرهاقاً لهم من حكم الأكاسرة ؛ فقد تركهم العرب لم يزعجوهم عن دينهم ولم يتدخّلوا فى شئونهم ، ثم جعلوا لأمراء الولايات من الاستقلال أكثر مما كان لهم فى عهد يزدجرد

وأسلافه . كما تركوا المناصب العامة للفرس لم يحاولوا استغلالها لأنفسهم مكتفين بالجزية يقتضونها وفاقاً للمعاهدات المعقودة بينهم وبين مختلف الولايات . لكن أبناء فارس لم يلبثوا أن شعروا بما فى حكم الأجنبى من مذلة لهم وعار عليهم ، وأن أدركوا مايحتويه نصٌ ورد فى المعاهدات كلها من جرح لشعورهم وإذلال لكرامتهم ؛ فقد جاء فى الفقرة الأخيرة من صلح أصبهان : « ومن سبَّ مسلماً بُلغ منه ، فإن ضربه قتلناه » . وكان صلح الرىّ يُلزم أهلها بأن « يقرُوا المسلمين يوماً وليلة ، وأن يفخّموا المسلم ، فمن سبّ مسلماً أو استخف به نُهك عقوبةً ، ومن ضربه قتل » . ونص صلح جُرجان على أن « من سب مسلماً بلغ جهده ، ومن ضربه حلّ دمه » . أفيغنى ترك الفرس أحراراً فى دينهم ، وعدم التعرض لهم فى التمتع بأموالهم عن الكرامة المهدورة والدم المباح كلما استخف فارسى بمسلم أو سبه أو ضربه ؟ ! لذلك بدأ الفرس ينتقضون بعد قليل من استقرار المسلمين بينهم ، مما اضطر عثمان إلى إرسال القوات المسلَّحة الحين بعد الحين لتأديبهم .

ولم يكن تأديبهم وردّهم إلى الطاعة عسيراً ؛ فلم يكن عمر قد فاته أن أمة عريقة فى الحضارة والمجد كأمة الفرس لن تذعن من بادئ الأمر لسلطان الأجانب عنها ، فأقام المسالح فى شتَّى أرجائها ، واحتاط بذلك لكل انتقاض يمكن أن تقوم به طائفة من أبنائها . وقد كان عمر فى هذا الأمر كما كان فى كثير غيره حصيفاً بعيد النظر . فالشعور بالكرامة أقوى أثراً فى النفس من كل شعور ، ولن يستطيع كبحه إلا قوة تضطر الثائر ، لمهانة نزلت به ، أن يختار بين كرامته وحياته ، وتجعل الشعور بالكرامة وغريزة الاحتفاظ بالحياة يقفان وجهاً لوجه . وقد كان لهذه الوقفة أثر بعيد فى حياة الشعب الفارسى أدَّت به إلى أن يدين بالإسلام ، ثم كان له من الأثر فى حياة الإمبراطورية الإسلامية مالا يدخل تفصيله فى نطاق هذا الكتاب .

فقد رأى العقلاء من أبناء فارس سُمُوَّ الإسلام ، ثم رأوا أن لا نجاة لكرامتهم مما نصَّت عليه المعاهدات إلا أن يدينوا بدين الحاكمين ، وأن يندمجوا فيهم جهد طاقتهم ، وأن يستردّوا بذلك سلطاناً لم تمكّنهم الأسلحة فى حمى يزدجرد من الاحتفاظ به . ولم يبلغ تعصبهم لدينهم أن يمنعهم من أن ينعموا بمزايا الإسلام ، وأولها أن يصيروا بمجرد إسلامهم أنداداً للحاكمين يساوونهم ويصاهرونهم . ثم إنهم حرصوا بعد إسلامهم على أن تسود عقيدتهم القديمة فى أمر السلطان ، فبلغوا من ذلك ما أرادوا أو نحواً منه . جاء فى كتاب « تاريخ المؤرخ » الذى نشرته « الإنسيكلوبيديا بريتانيكا » فى هذا الموضوع ما خلاصته :

« دخل الفرس فى الإسلام أفواجاً عقب الفتح . ولذلك أسباب كثيرة يمكن ردّها جميعاً إلى سببين اثنين : أولهما أن الإسلام كان دين الحاكمين ، والثانى أن الفرس لم يكونوا يَعْنَوْنَ إلا قليلا بالدين الرسمى للدولة السابقة . هذا إلى أن العقيدتين كانتا تلتقيان فى مواضع كثيرة ، فلم يكن الانتقال من إحداهما إلى الأخرى ليثير نفوساً تزعزع إيمانها بعقيدتها الأولى ؛ فقد ضعف إيمان الفرس بتعدد الآلهة ، وأصبح تصورهم أزْمُزْد قريباً من فكرة الألوهية الإسلامية . ثم إن بساطة العقيدة العربية كانت منجاة للفرس من تعقيد الشعائر المَزْدية ، وكانت الزكاة المفروضة فى القرآن تقابل بل تسمو على ما تدعو إليه « الأفِيسْتا » من الصدقة والإحسان . أما ما جاء فى القرآن عن الجنـــة والنار وعن الآخرة فكان مذكوراً فى كتبهم . بذلك لم يغير الإسلام فى نظر الشعب الفارسى شيئاً من عقائده الأساسية إلا أن جاءه باسمين جديدين : الله ومحمد ، وأن أحل الكلمات الثمان التى تعتبر قواعد الإسلام محل الكلمات الإحدى والعشرين التى تقوم عليها عقيدة الفرس

« كان لهذا الانتقال الدينى أثره فى الناحية السياسية . فالعقيدة الفارسية تجعل السلطان للملك على أنه ابن الله ، فله المجد والقدسية بحكم مولده الأسْمَى . وقد أدّت ثورة الفرس وانتقاضهم على سلطان المدينة وسلطان دمشق إلى اجتماعهم حول الوارث الشرعى لمحمد : ابن عمه على العربى الذى أقصى عن الخلافة ، وإلى أن يحيطوه بهالة من الجلال والقدسية ألف أسلافهم أن يحيطوا بها ملكهم القومى . وكما ألِف أسلافهم أن يلقّبوا كسرى : « الملك المقدّس ابن السماء » . وأن تصفه كتبهم بأنه « السيد والمرشد » ، كذلك فعلوا فى عهدهم الإسلامى فدعوه الإمام . وكان هذا اللقب على بساطته جليل المعنى إذ جمع صاحبه السلطان الدنيوى والتوجيه العقلى .

« فلما قُبِض علىٌّ اجتمع الفرس حول ولديه الحسن والحسين ، ثم اجتمعوا من بعدهما حول عقبهما . وقد قيل : إن الحسين تزوج بنت آخر الأكاسرة الساسانيين ، فتركزت الإمامة بذلك فى عقبه بازدواج الحق المقدّس ، ثم بارك دمُ الحسين بسهول كَرْبلاء على هذه الوحدة التى جمعت بين الإسلام وفارس القديمة .

« وكانت الثورة التى خلعت بنى أمية وأجلست العباسيين ذوى قرابة رسول الله على العرش من صنع الفرس . بذلك حققوا مبدأهم فى الإمامة ، وإن لم يتوّجوا بالسلطان من بذلوا كل جهدهم فى سبيل تتويجه إلخ » .

هذه الحوادث التى يذكرها « تاريخ المؤرخ » ، ويذكرها المؤرخون جميعاً ،

تتخطى عهد عمر . وإنما سقناها هنا لنلفت القارئ إلى أن الفرس لم تطمئن نفوسهم لحكم العرب ، بل برموا به وحاولوا الانتفاض عليه جهرةً من أول الأمر . فلما غلبوا على أمرهم جعلوا كل همهم أن يكون السلطان لهم ، فبلغوا من ذلك الشيء الكثير في ميادين الحياة العامة جميعاً . وقد بلغ من برمهم بفتح المسلمين بلادهم أن ثارت نفوس طائفة منهم بعمر ، حتى قيل إن مقتله بعد قليل من فتح خراسان كان ثمرة لمؤامرة فارسية . وسنفصّل ذلك من بعدُ . وحسبنا أن نقول ههنا إن عمر كان صادقاً كل الصدق حين قال يوم كتب إليه الأحنف بن قيس بفتح خُراسان : « إن الله قد أهلك ملك المجوسية وأورث الإسلام أرضهم وديارهم وأبناءهم » وأن هذا الفتح كان النذير الصادق بانتهاء دولة الأكاسرة من بني ساسان[1] .

أما وقد فرغنا من فتح فارس فلننتقل إلى ميدان آخر كانت أسلحة المسلمين مشهورة فيه حين كانت أسلحتهم مشهورة في أرض كسرى ، وكان لها من مجيد الفعال هناك ما كان لها من مجيد الفعال هنا ، ثم كان قائدهم عمرو بن العاص أوسع قواد المسلمين حيلة وأشدهم ذكاء. هذا الميدان الآخر هو مصر .

---

(١) لعل القارئ قد لاحظ أننا لم نعين تاريخ أكثر الغزوات في فتح فارس . وأننا أغفلنا في غير موضع ذكر أسماء القواد الذين تولوا إمارة الجند في هذه الغزوات : والواقع أن تحقيق التواريخ لغزوات فارس غير ميسور ، ولعله غير ممكن وحسبي أن أذكر هنا أن أهم غزاتين فيها ، هما غزوة القادسية وغزوة نهاوند ، يقع الريب في تاريخ وقوعهما . وليس يقتصر هذا الريب على المؤرخين المسلمين ، فليس المؤرخون الأجانب دون زملائهم ريباً . فهم يذكرون أن القادسية وقعت إما في سنة ٦٣٦ أو في الشهور الأولى من سنة ٦٣٧ ، وأن نهاوند تتراوح بين سنوات ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ .والطبري يذكر أن القادسية وقعت في السنة الرابعة عشرة ، وهي توافق سنة ٦٣٥ أو أوائل سنة ٦٣٦ ، وأن نهاوند وفتح أصبهان كانا في السنة الحادية والعشرين للهجرة : وفتح خراسان والري وجرجان وطبرستان وأذربيجان في السنة الثانية والعشرين . ويجعل فتح فارس وكرمان ومكران وسجستان في السنة الثانية والعشرين . وهو مع ذلك يورد من الروايات التي يراها مرجوحة مايجري بأن أذربيجان فتحت سنة ثماني عشرة بعد فتح همذان والري وجرجان وطبرستان . ويذكر ابن كثير أن فتح خراسان حدث بعد فتح فارس وكرمان ومكران ، وهو رأي راجح ، وبذلك تكون قد فتحت سنة ثلاث وعشرين إن صح أن فارس وجاراتها فتحت تلك السنة . أما البلاذري فيخالف تلك الروايات كلها في كثير من الأحيان ، ويذهب إلى أن إيران لم يتم فتحها إلا في عهد عثمان بن عفان . كما يخالف الطبري ومن ذهب مذهبه في تسمية كثير من الأمراء الذين تولوا إمارة الجند في هذه الغزوات الكثيرة المختلفة . وقد حرصت على تحقيق ماستطعت تحقيقه من ذلك كله جهد طاقتي ، فقارنت الروايات بعضها ببعض وطبقتها على جغرافية فارس الطبيعية والسياسية لذلك العهد ، وأثبت في هذا الفصل ماعتقدته أدنى الروايات كلها إلى الصحة . أما ماضطربت الروايات فيه ولم يكن إثباته ذا قيمة في التاريخ للإمبراطورية الإسلامية لعهد عمر فأغفلته . وأحسبني لم أضع على القارئ بهذا الإغفال مايفوت عليه شيئاً جوهرياً في الموضوع الذي نحن بصدده . وأكبر رجائي أن أكون قد وفقت لتصوير الفتح الإسلامي لأرض فارس على نحو يجلوه أمام القارئ في صورة واضحة خالية من الاضطراب .